وسط الزقاق الضيق الواقع في منطقة الكسرة والمشهورة بالحلة البغدادية الشعبية القديمة، لم ينفك المارة من المواطنين عن سماع صوت قطع لعبة الدومينو، وهي تطرق بعصبية على طاولة مقهى إبراهيم عرب، يليها صراخ الشباب بإعلان الفوز، ليعلن الفريق الفائز عن تمتعه بشرب الشاي والتراجيل بالمعسل المستورد ذي (التفاحة او التفاحتين) تقابله مناقشة وضجيج لا يخف من سماع صوت الأخبار من التلفاز الذي اعتلى واجهة المقهى الداخلية، وما ان يحل الليل حتى يخفت كل شيء ويصيب المكان الهدوء والسكينة. فهل أصبحت المقاهي البغدادية القديمة تراثا حضاريا نستذكره بين الفينة والأخرى، خاصة بعد ان غدت وتحولت المقاهي البسيطة الى مقاه تسمى (كوفي نت) او قاعات للعب البليارد إضافة الى كافتريا خاص لاحتساء مختلف أنواع المشروبات.

إيناس طارق.....تصوير / مهدي الخالدي

# المقاهي البغدادية القديمة
## من أماكن لمناقشة الثقافة وسماع المقام الى قاعات للبليارد

داخل مقهى الشابندر

### أقدم مقهى في بغداد

يذكر الباحثون ان أول مقهى شيد في بغداد هو مقهى (خان جغان/عام ١٥٩٠) في عهد الوالي العثماني (لة زداه سنان باشا) فضلاً عن مقهى او كما كانت تسمى سابقا (قهوة الشط) والمطلة على شاطئ نهر دجلة من جانب الرصافة والتي أسست عام ١٨٧٥ في العهد العثماني أيضاً، وكانت هذه المقهى تشهد جلوس العديد من المواطنين المتعطشين الى سماع الأغاني التراثية القديمة، وسماع القصون (الراوي الشعبي) الذي كان يحكي حكايات ومغامرات عنترة ابن شداد وأبو زيد الهلالي، وغالبا ما كانت هذه الجلسات تكثر في شهر رمضان ومساءات الخميس من كل أسبوع.

ومن ثم تطور مفهوم المقاهي الشعبية ولا يكاد يخلو حي من مقهى في احد أزقته، وحسب ما يروي الكاتب باسم حمودي، عن ذكرياته لمقاهي بغداد حيث قال: كانت المقاهي البغدادية القديمة مكاناً يلتقي فيه خليط من فئات المجتمع العراقي المختلفة، ان كانوا صناعا او حرفيين وحتى سائقي السيارات وتقريبا جميعهم يكاد ينتمون الى محلة واحدة، وهناك مقهى كان يلتقي فيه أناس من خارج العاصمة بغداد ويدعى مقهى البيروتي الواقع في جانب الكرخ عند ساحة الشهداء وكان هذا المقهى كبيراً مقارنة بالمقاهي البغدادية الأخرى.

### مقاهي شارع الرشيد

وحقيقة وحسب ما يذكر التاريخ البغدادي القديم، ان عدد المقاهي البغدادية كان كبيراً جداً لكن الشيء الذي يميز احدها عن الأخرى، والتي أخذت حيزاً من اهتمام المفكرين والأدباء والناس العاديين هو بعض الأسماء منها مقهى عارف اغا الواقع في شارع الرشيد، مقهى إبراهيم عرب والواقع في محلة الكسرة، إضافة الى مقهى البلدية المواجه لوزارة الدفاع قرب جامع الأحمدي، فضلاً عن مقهى الزهاوي، حسن عجمي في منطقة باب المعظم والتي سميت بعد ذلك بمقهى الرشيد كذلك مقهى البرازيلية والتي كانت تقدم القهوة البرازيلية المميزة بطعمها الرائع وكان يلتقي في البرازيلية في خمسينيات القرن الماضي عدد من الأدباء والكتاب منهم عبد الملك نوري، فؤاد التكرلي، حسين مردان والمؤرخ جواد علي ورشدي العامل، إضافة الى عبد الوهاب البياتي وعدد من الكتاب والشعراء، والكثير من المقاهي الأخرى مثل (مقهى السويس) المقابلة لمكتبة مكنزي في شارع الرشيد وكانت من المقاهي الراقية جداً وتقدم أرقى أصناف الحلويات والقهوة لهذا من روادها أشخاص معدودون ومن طبقة الأغنياء، بينما كان مقهى المعقدين يرتاده من الأدباء من يعتبر نفسه هو الأفضل أمثال فاضل العزاوي، عادل عبد الجبار سركون بولص.

اما مقهى الشهبندر والذي كان يعتبر أساساً مقهى المحامين والقضاة، بينما كان مقهى ام كلثوم ولا يزال حتى يومنا هذا يطرب روادة بأغاني كوكب الشرق ام كلثوم الفريدة والنادرة.

وجميع هذه المقاهي القديمة كانت محطة جلوس غالبية الأدباء والمفكرين وتشهد مناقشاتهم الأدبية والسياسية ويكاد لا يمر أسبوع دون ان تشهد هذه المقاهي مظاهرات منددة بالاستعمار الانكليزي آنذاك.

### المقهى والمقام

لكن مع الأسف الإعداد الكبيرة لهذه المقاهي وغيرها ذهبت مع الريح بسبب تطور الزمن واختلاف الجو السياسي وتغير الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وتحديدا المقاهي الواقعة في شارع الرشيد فقد أصبح الشارع تجاريا وبمرور الوقت عم الطابع الاقتصادي عليه وجاء عالم البونتيكات ليحتل محل كل شيء قديم، فضلاً عن حصول أصحاب المحال والمقاهي السابقة على إيجارات مرتفعة فضلا عن قلة ارتياد هذه المقاهي فبعد ان كانت مكانا أسبوعياً لسماع المقام العراقي الأصيل وبصوت يوسف عمر، عبد القادر حسون، حمزة السعداوي، وكان للمقام مساحة واسعة في المقاهي، وشهدت منطقة الميدان مقاهي للمقام العراقي احتضنت عبود الكرخي والقبنجي والقندرجي، إضافة الى ان هذه المقاهي كانت تمثل المتعة والتلاحم لحياة الشعب الواحد المتمثل بكل شرائحه وهذا ما أعطى للمقهى أهمية وأثرا في حياة الناس بكل شرائحهم فالكل يجلس بائع البلابل والسائق والمستطرق والأديب والمفكر والسياسي والعامل والعاطل عن العمل فكلهم سواء في جلوسهم على المقاعد لانهم يمثلون شريحة مختلفة من الشعب العراقي الأصيل ومسموح للجميع المشاركة في سماع الأغاني والحديث باي موضوع كان.

احدى المقاهي القديمة

### المشروبات التي تقدم للزبائن

وغالبية هذه المقاهي البغدادية القديمة كانت تقدم لزبائنها الشاي المهيل والدارسين، وشاي كجرات المميز باللون الأحمر، وبعض المرطبات مثل السيفون والذي يكون عبارة عن قنينة زجاجية تشبه قنينة البيبسي الحالية، لكنها صغيرة الحجم وتعمل في البيوت، أي صنع يدوي، فضلا عن تدخين (التتن) أي النركيلة ويستخدم فيها التبغ الشيرازي والهندي والذي يسمى الآن المعسل.

### المقاهي الحديثة

اما المقاهي الآن فقد شهدت تغيرات جذرية كبيرة لان غالبية روادها هم من فئة الشباب ويرتادونها للعب البليارد والبلي والورق والشطرنج والدومينو فضلا عن تشغيل التلفاز لمحطات رياضية معينة لاستقطاب فئة الشباب المحب للرياضة.. وما يسمى الآن مقهى هو تسمية مكاتب الانترنيت او ما شاكل غير ذلك وما بقي من مقاه قديمة تقريبا مقهى الشهبندر الواقع الآن في شارع المتنبي والذي يجمع إطلالة الماضي والحاضر برواده الشباب والمفكرين القدماء وقبل فترة وجيزة هدم مقهى حسن عجمي الواقع في باب المعظم بسبب عمليات الاعمار.

### نبذة تاريخية

شارع الرشيد، او ما يسمى شارع الجادة و ظلّت اللوحة، معلّقة حتى خمسينيات القرن الماضي، وظل الشارع حتى احتلال بغداد في ١١/آذار من عام ١٩١٧ مليئاً بالحفر يعلوه التراب، وبدأ الإنكليز أول عهدهم بتعبيد الشارع وأطلقوا عليه تسمية (الشارع الجديد)، بينما سمّاه البغداديّون (الجادة العمومية) ثم سمّي (الشارع العام) ليطلق عليه أخيراً اسم (شارع الرشيد) تيمّناً باسم الخليفة العباسي هارون الرشيد الذي عاشت بغداد في عهده عصراً ذهبياً كما يقال. وبمر السنين أصبح لهذا الشارع حصة الأسد من المقاهي الأدبية الشهيرة، إذ قامت على جانبيه كل من مقاهي: الزهاوي، حسن عجمي، الواق واق، البرازيلية، ياسين، شط العرب، البلدية، البرلمان، المعقدون، الشابندر، الرشيد ومقهى الغناء أم كلثوم، سمر وغيرها الكثير.

واعتبر هذا الشارع ومقاهيه المنتشرة على أماكن مختلفة من جانبيه المكان الذي تنطلق منها تظاهرات الأحزاب والقوى الوطنية العراقية والمثقفين والسياسيين ضد الهيمنة البريطانية والحكومات المتعاقبة طوال سنوات طويلة حتى قيام ثورة ١٤/ تموز عام ١٩٥٨.

ومن أبرز الشخصيات الثقافية التي غذت الحماس الوطني وألهبته مع بدء ثورة العشرين في ٣٠ يونيو/ حزيران ١٩٢٠ الشاعر والخطيب المعروف محمد مهدي البصير.

وفي الثلاثينيات من القرن الماضي كان ينطلق من مقهى (عارف آغا) المثقفون والوجوه الوطنية المعروفة ليشاركوا في المظاهرات الوطنية والاحتفالات التي يحييها الشاعر معروف الرصافي.

جالبة الرزق وضد الرصاص

# الأحجار الكريمة وهم حولته الأزمات الى حقيقة عند البعض

جلس الرجل الستيني إلى جوار (الجنبر) الخاص ببيع الأحجار الكريمة، في باب المعظم، وقد تجمع حوله عدد من زبائنه، الذين يعتقدون بقدرة هذه الأحجار على تجاوز المحن، وهو ما منحها مسمى «تجارة السعادة»، حيث يسعى البعض إلى الاستعانة بالأحجار أو الفصوص لما يعتقدون بأنها تحتوي من قوى غيبية لأجل تحسين ظروفهم المعيشية لاسيما وان الأزمات التي يعيشها المواطن جعلته يؤمن «بالخزعبلات» لعل فيها ما يخرجه من دائرة الاحباطات المتلاحقة، وهناك آخرون يلجأون إلى أنواع من الخرز لإلحاق الضرر بخصومهم عبر تسليط قوة هذه الفصوص الخفية.

وائل نعمة
تصوير مهدي الخالدي

### تؤدي الى ازدهار التجارة

يقول عدنان صلال صاحب هذا (الجنبر) ثمة أحجار اكتسبت شهرة مع الزمن مثل (عرق السواحل) او ما يسمى شعبيا بـ (عرك سويحلي) الذي يحظى بأهمية خاصة لدى المهتمين بجمع الفصوص، إذ يعتقد انه يحتوي على قوة في التأثير العاطفي، فهو يجعل قلب المحبوب رقيقا متسامحا. وتصل قيمته إلى أكثر من ٥٠٠ مليون دينار.

ويضيف عدنان « إن تجارتنا تزدهر، وهناك إقبال يزداد يوماً بعد يوم على شراء الأحجار التي تغري بألوانها الجميلة أعين الناس، فيأتون إلينا راغبين في معرفة ما تحويه من قدرات عجيبة في تحقيق آمالهم.

وتابع « نحن نبيع أحجاراً لديها قدرات غير طبيعية، فبعضها يجلب المحبة بين الأزواج، وأخرى تأتي بالأرزاق لأصحابها، فيما تحمي أحجار أخرى أصحابها من مخاطر الدنيا، وتبعد أعين الحساد عنهم»، ويعتقد عدنان ان الجميع يأتي إليهم باحثاً عن أمل ضائع، ويحاول أن يجده عندهم، ويصف عدنان زبائنه بأنهم ممن فقدوا الأمل بالغد، ويحاولون الحصول على التفاؤل والأمان والرزق حتى يواصلوا حياتهم نحو المستقبل، وأن زراعة الأمل والطمأنينة في عقول الناس هي تجارتنا منذ سنين طويلة!.

للزينة ولنيل الأمنيات

### ١٠ الى ١٥ حجراً يومياً!

ويروي مازن ابو سعد (٥٥) عاما، وبائع أحجار كريمة في سوق الاستربادي قصة أحد تجار السوق الذي كان يعاني من كساد بضاعته لعدة أشهر حتى أنه أصيب بأزمة نفسية، لكن بمجرد شرائه حجراً جالباً للرزق بأكثر من ٣٥٠ ألف دينار عراقي ازدهرت تجارته!

ويؤكد أبو سعد من دون الكشف عن مصادر هذه الأحجار الكريمة، أن الطلب يكثر على أحجار المحبة بين الأزواج، والمساعدة على إنجاب الأطفال لان الأزواج يعانون من قلة التفاهم والاندماج وصعوبة في الإنجاب، على حد تعبيره، مبيناً أنه يبيع ما بين ١٠ -١٥ حجراً من هذا النوع شهرياً بأسعار تزيد على ٧٥ ألف دينار عراقي.

ولفت إلى أن أكثر زبائنه من النساء، وأن عمله فيه (تشابه كبير مع عمل أطباء علم النفس)، وأن تجارة الأحجار والخرز تحتاج إلى لسان بارع يعرف بمشاعر المواطنين ومكنونات قلوبهم لأحجار عديدة ومتفرعة ومتشعبة ويذكر لنا أبو مازن منها (العقيق) فالعقيق يقسم إلى أكثر من أربعة أقسام فمنه اليماني والهندي والخراساني والجبر من، وان ابرز وأغلى هذه الأنواع هو العقيق اليماني واليماني يتفرع أيضا إلى أقسام عديدة وتسميات حسب ألوانه منها الأبيض والأخضر والأصفر ويطلق عليه اسم شرف الشمس والمشمشي والتمري والكبدي والأحمر.

ولعل أغلى هذه الأنواع هو كما يقول ابو سعد « الأحمر والأخضر وكلما زاد احمرار الحجر زاد سعره و أن سعر الأحجار القديمة أكثر بكثير عن الأحجار الجديدة والمسماة (جرخ اليمن) وهناك نوع آخر يعتبر من الأحجار الغالية جدا يسمى الجزع ألبقري أو البقراني والذي يكون على شكل عين في الأغلب ويشترط أن يكون قديما كي ينال أعلى الأسعار فبعضه يباع بألف دولار كما توجد أحجار تباع بمبالغ خيالية ولا تقدر بثمن وتفوق الألفي دولار.

وأسماء أخرى ذكرها ابو سعد هي (الياقوت) ففيها أنواع أيضا كالإفريقي والكولومبي والهندي والباريسي وأغلاها الأفريقي وكلما زادت صلابة الياقوت زاد ثمنه واقترب من الماس كون الماس من أقوى الأحجار من ناحية الصلابة وهناك أجهزة خاصة لقياس صلابة الحجر وأيضا هناك أحجار أخرى منها (حجر القمر) و(السليماني) و(المرجان) وفيه نوعان البرتقالي والأحمر ويعد الأحمر أغلى و(الزمرد) وفيه أنواع أيضا الهندي والزامبي فهذا الحجر كلما زادت نقاوته زاد سعره ويعد الزامبي أغلى.

وهناك أيضا (الحجر الصيني) و(الزبرجد) و(الزفير) و(الدر) فهناك أنواع كثيرة من الدر ولعل أبرزها وأحبها إلى العراقيين الدر ألنجفي كما توجد أحجار كثيرة مثل (المريماني) و(الجمشد) و(اليشم) و(الكريستال) و(الزار كون) و(عين النمر أو عين الهر) أو التايكر و(الفيروز) و(الاوبال) وأنواع من (العاج) و (والماس) و(المغناطيس) و (الجاد) و(الكهرب) و(اليسر) و(الامتيست) والكثير الكثير فاتني ذكر اسمه.

### بين الرفض والقبول

بدورها، قالت أم أمير (٤٥ عاماً) وهي تلمس بأناملها أحجاراً معروضة في محل ابو سعد، إنها تؤمن بالقدرات الكبيرة للأحجار، مشيرة إلى أنها مرت بتجارب سابقة أثبتت لها أن لبعض الأحجار قدرات تفوق التصور وتحقق الأحلام.

وأضافت قائلة « أرغب في شراء حجر يبعد عن ابني الذي يعمل في الشرطة أعين الحساد، ويبعد عنه خطر العنف، وأن يعود سالماً دون أذى.

ويخالفها الرأي عدي عبد الحسين (٣٤ عاما)، وهو صاحب محل لبيع الملابس لا يؤمن بقدرات الأحجار، لكن ذلك لا يمنعه من المرور على السوق لمشاهدة المعروض منها.

وقال عبد الحسين: إن الناس تأتي إلى هنا لأنها تلمس ما تريد أن تسمعه من كلام جميل وطمأنينة، وتحتاج إلى أن تتعلق بأي أمل حتى لو كان خيالياً، بغية أن تواصل حياتها نحو المستقبل بشيء من الاستقرار وراحة البال، نتيجة هول ما تعرضوا له خلال فترة العنف الطائفي قبل عدة سنوات.

### خاتم بـ ٣٠٠ الف دينار

فيما يقول فوزي عبد الكريم (٦٥ عاما) واحد مقتني هذه الاحجار « إن الأحجار التي ترصع بها الخواتم والمسابح والحلي والإكسسوارات النسائية والرجالية وغيرها، ما هي إلا أحجار تنتشر في بقاع العالم كافة، وقد اقتناها العظماء والسلاطين والملوك والكهنة للدلالة على العظمة وبعضهم للدلالة على الجبروت والهيمنة وبالرغم من أن لها مسميات جغرافية وتاريخية إلا أنها أحجار جاء ذكرها في الكتب المقدسة وانها مذكورة في القرآن على أنها مصدر للسعادة وباعثة على البهجة والانشراح. ويشير الى انه اشترى خاتما كلفه اكثر من ٣٠٠ الف دينار وليس نادما على ذلك لانه لمس تأثيره الايجابي بصورة مباشرة ودون تأخير حالما وضعه في يده!

### النساء والأحجار

اما رغبة النساء باقتناء الأحجار الكريمة فيصفها صباح كواز (صائغ) في شارع النهر، «بالجنون» في بعض الأحيان حيث يرى معظم زبائنه من النساء المولعات جدا بشراء الأحجار وصياغة الخواتم الفضية مهما كانت أسعارها وبأي شكل تكون فالمهم هو احتواؤها على فص او حجر ينقش عليه آيات قرآنية او التعويذات والطلاسم والحروف.

ويؤكد ان الطلب على الخواتم المرصعة بالأحجار الكريمة في ازدياد وخصوصا الفضية منها المفضلة عند الرجال والنساء على حد سواء حتى ان معامل الصياغة في شارع النهر تنتعش هذه الأيام بصياغتها وفق الموديلات والأحجام التي يطلبها أصحاب المحلات ليتم بيعها الى المواطنين.

### موضة سياسية

ويرى محمد هادي باحث اجتماعي، أن الضغط النفسي الشديد الذي تتعرض له الأسرة العراقية في كل شيء كبير جداً، وهو ما أسهم في ازدهار تجارة الأحجار والخرز وقراءة الفنجان والكف.

واعتبر محمد لجوء بعض المواطنين إلى شراء الأحجار للحصول على آمال معينة، دليلاً على المعاناة وفقدان الأمل بالغد وبروز نبرة التشاؤم، لذا وجدوا في الأحجار سبيلاً للتمسك بآمالهم، وهو ما أدى إلى ظهور ما يمكن أن نسميه «تجار السعادة»، وهم في حقيقة الأمر أقل خطورة من تجار المخدرات والعنف. ومن جانب آخر يرى ان الامر ربما يكون « موضة سياسية»، يراد بها التقرب من الوضع السياسي في العراق الجديد، وان الغالب في المشهد السياسي اليوم في العراق هو الإسلام السياسي، ولذلك ترى الناس تحاول التشبه او تقليد القادة السياسيين في محاولة من العقل اللاواعي أحياناً والواعي في الغالب لاثبات « الولاء» للوضع الجديد.

### تسهيل المعاملات

ويؤمن كريم حسان ٤٠ عاما، بان أنواعا من الخرز أو الأحجار الكريمة لها أثر كبير في تسهيل أعمال حاملها أثناء مراجعاته لدوائر الدولة.

ويقول في حديثه «الموظفون الذين كانوا ينزعجون عندما اطلب منهم إنجاز معاملتي، صاروا يقابلونني بابتسامة عريضة ويظهرون لي احتراما واضحا».

ولكن عباس يحذر المهتمين بجمع الأحجار الكريمة من وجود أنواع مغشوشة، فهي جميلة لكنها عديمة المنفعة ولا تعمل في الدوائر الحكومية!

أما علي جمال ٣٣ سنة، فيقول، أن بعض أنواع الفصوص تقي من الرصاص، وقال «بعض اللصوص كانوا يستخدمونها أيام زمان، أما أنا فقد جربتها بنفسي مع إني لست لصا!

أما الأمهات حديثات الولادة اللواتي يجف حليبهن فيلجأن إلى أنواع أخرى من الخرز لاعتقادهن بأنها تجعل الحليب يتدفق من صدورهن والقائمة تطول من المعجزات التي تقدمها هذه الخرز.

### نوع من الخرافة

في مقابل هؤلاء ثمة من يعتبر قوة الأحجار الكريمة والخرز نوعا من الخرافات.. ندى عبد علي من مركز البحوث النفسية، تقول «إن الإنسان يلجأ إليها لاتقاء مصاعب الحياة وعادة ما يستعين بها في أوقات الحروب والأزمات، فتجارة الأحجار الكريمة أو البحث عنها راج في العراق وانتشر بسبب الحروب التي مر بها العراق فأخذ الرجال يبحثون عن خرز ضد الرصاص وأخرى للرزق في زمن الحصار».

وتضيف ندى «أن هذه التجارة المتعلقة بالغيبيات استغلت من قبل أشخاص يسعون دائما لاستخدام مشاعر الناس وعواطفهم لتحقيق الربح، فراحوا يبيعون بعض الخرز بحجة أنها تجلب الحليب عند المرضعات وأخرى تجلب المحبة لمداعبة مشاعر الشباب، غير أن أشخاصا عديدين من المهتمين بالأحجار والخرز يعتقدون بأنها تستبطن قوى غيبية، ويمكنها أن تحقق منافع عدة.